فلسفة التاريخ

مرار وتحليل

اختلفت مذاهب المؤرخين والفلاسفة في اهم العوامل التي تكوّن التاريخ وتوجهه فماركس يقول بتفسير التاريخ الاقتصادي . ورنزل بتفسيره الجغرافي . وهيغل بتفسيره العقلي او الصيكولوجي وهكذا . ولكل من هذه المذاهب اقوال تؤيده واخرى تزيفه او تقلل من شأنه . فرأينا ان ننشر في المقتطف سلسلة من المقالات في هذه المذاهب المختلفة نقلا عن كتاب فلسفي انكليزي حديث اسمه « صروح الفلسفة » وقد جعل المؤلف هذه الفصول حواراً بين اشهر اصحاب المذاهب في تفسير التاريخ ، موردا خلاصة مذاهبهم على السنتهم وقسمها الى مقدمة يليها تفسير التاريخ اللاهوتي فتفسيره الجغرافي فالاتنولوجي فالاقتصادي فالصيكولوجي فالتفسير المشترك . اما المتحاورون فهم :

اناتول فرنس	فردريك رنزل	مدبسن غرانت
فردرك نيتشه	هنري توماس بكل	غبريل تارد
فولتير	كارل ماركس	مونتسكيو
هيغل	توماس كارليل	فيليب
جاك بنين بوسويه	دي غوبينو	اريل — سيدة —
لستر وارد	وليم جيمس	ول دورانت (المؤلف)

المكان : حديقة في مملكة العقل

مقدمة

كنا نتحدث ، ونحن نتخطر بواد في بومانوك ، بقول كروتشي : الفلاسفة يجب ان يؤرخوا ، والمؤرخون ان يتفلسفوا : ونحن نمتع النفس بنضارة الحقول ، وظلال الاشجار الغناء ، ومياه البحيرة المترقرقة ، وأشعة الشمس الذهبية ردف الغروب . وافكارنا غارقة في كتب كنا نطالعها في ذلك المساء الصيفي الجميل

فقالت اريل : يسرني جداً ان اني بدرس التاريخ الآن ، فقد ملّت نفسي مباحثكم في المنطق ، وما وراء الطبيعة ، وفلسفة المعرفة « Epistemology » فبدلاً من ان تطلعوني حقائق جديدة سلبتموني ما كنت اعرفهُ من قبل

فيليب : حشدُ الكثير من الحقائق غير مستحسن

دورانت : قد تكون تلك الدروس الثقيلة مستحسنة حيناً ، ولو لم تجهزنا بشيء الاّ بصفة التفكير الفلسفي — اعني صفة الاحاطة بالكليات وتطبيق النظر الكلي على شؤوننا الجزئية

اريل (مبتسمة) : انت مولع بالنظر الكلي ، اليس كذلك ؟

دورانت : نعم فالنظر الشارف سبيل الحكم المتزن . اني اريد ان ادرس الاشياء الكلية

فيليب (مسروراً) : حسناً ، على ان ذلك مما لا يعبأ به المؤرخون . فلهم عقائد لاهوتية يريدون ان يثبتوها ، او آراء خاصّة يرغبون في تأييدها ، او وهم وطني يرمون الى تقريره واذاعته . على انهم لا يجرؤون على ان ينظروا نظراً مشارفاً الى «وطنهم» و«حزبهم» وعقيدتهم» . ان اربعة اخماس الكتابات التاريخية هي كالكتابات الهيروغليفية المصرية ، تنحصر في اطراء مآثر الملوك والكهان

اريل : حتى حبينا «جبون» متأثر في ذكر الملوك . الا ترى رأيي ؟

دورانت : على انهُ يرسم بالالفاظ صوراً كخيائل الجلو ويبدع موسيقى كباخ . انا لا اسلم بكلمة جارحة تقال فيه . ولكن ما رأيك في « وودرو ولسن » الذي حدد التاريخ بانه «سياسة الماضي» — وهو حد منلوط في حسابك ، كما يُرى المواضيع السياسية عامتهم البشر بتذكره

اريل : لقد كانت الحكومة الصينية اكثر امانة ، مع انها قضت ٢٦ قرناً تستأجر المؤرخين لتسجيل فضائل الامبراطورية وانتصارها ، طاوين كشحاً عن رذائلها وانكسارها

فيليب : هذا هو التاريخ الامثل لمجالس المدارس الوطنية . والحال في الصين قديماً لم تكن شرًّا منها في اوربا الآن . فقد امدتنا الاجيال الوسطى ، وعصر النهضة ، وعصر التنوير ، بتواريخ العالم . ولكن القرن التاسع عشر ابتدع مبدأ القومية ، فأفسد المؤرخين عامة . فكان «تريتشكه» و« فون سبيل » و « ميلبث » و « ماكولي » و « جبرن » و«بكرفت» و «فسك» وطنيين اولاً ومؤرخين ثانياً ، حاسبين بلدهم ارض الله ، وسائر العالم ملوءاً رذيلة وهمجية . فليس ثمة كبير فرق بين كتّاب كهؤلاء وبين سياسي الصالونات الذين يحسبون امة غوته من الهمج ويتهجمون على اسم اتحيت شوبان وسبينوزا وليوناردو

اريل : من القائل « ليست المعاهدات ولا التجارة طريق السلم السلطانية بل الغاء التاريخ » ؟

دورانت : ولكن القرن العشرين ليس خيراً من القرن التاسع عشر . فاني لا اسوّغ الاسلوب العصري ، المزري بأعاظم الرجال متهماً اياهم بأن «اشهر ما يؤثر عنهم هو اكاذيبهم وسكرهم وغرامهم وقذفهم » . ولا اغتفر « لولز » ازاله نابليون ويوليوس قيصر ، الى مستواه الخاص . اني ألوذ بديانتي — عبادة النوابغ

فيليب: لا اوافقك في ذلك. فهؤلاء المؤرخون الذين يروننا الجانب العيب من الصائرة وينبشون ما في حياتهم من العُقد الفرويدية (النزعات التناسلية) ليسوا دون المؤرخين الذين كتبهم كالقبور المكلسة . فعلينا بمطالعة الفريقين والموازنة بينهما لاستجلاء الحقيقة . ومؤرخو الجامعات اكثر عداء لمعنى التاريخ الصحيح لانهم يقفون الحياة ليبرهنوا على ان الصغائر كبائر ويكتبون رسائل هي والمقالات التي تقدم لنيل درجة دكتور فلسفة سيان لغواً وقلة نفع . هاهم يقبرون الى المكاتب ، داقين انفسهم في البحث عن الدقائق الزهيدة متذرعين بصبر النمل ومثابرته في جمع مؤونته . انهم يضيعون نفوسهم في التقارير والاحصاءات ، ويبرهنون بتعب ونصب ما الامور التافهة من الشأن الخطير . انهم يرون الاشجار فرادى ، ولا يدركون وحدة الغابة . انهم لا يدركون ان الماضي ميت ، الا من حيث علاقته بحياة رجال اليوم وأعمالهم وصفاتهم ومقاصدهم ، وان قيمة التاريخ تنحصر في تنوير حاضرنا ومساعدتنا على السير في رحاب المستقبل . فهم مؤرخون مدرسيون ، واخوة اوفياء للفلاسفة المرقة الذين تمقتهم . هم كالبيولوجيين الذين يقتلون حشرة ، ويحنطونها في الكحول ، ثم يشقونها على مهل ، ويشرّحون مجموعها العضوي ، زاعمين انهم يدرسون « الحياة » . او كالنقيين الصبورين الذين يثابرون على البحث في مختبرات الفيكولوجيا العملية ، ليثبتوا بالقياس والارقام والرسوم البيانية ما يعلمهُ كل انسان عن السلوك الانساني من الوف السنين

فتبسمت اريل قائلة « دونك واياهم » « فليسقطوا »

دورانت : وجل حاجتهم انما هي الى نفحة فلسفية تمكنهم من الادراك الكلي

اريل : نعم ، فاني احب ان ارى التاريخ «موحداً» . احب ان اعرف هل لهُ نواميس ، او على الاقل هل فيه عبرٌ نأخذ بها ؟ وهل الارتقاء يقين ، او وهم باطل ؟ وهل يهدينا الماضي ونحن نمدّ ين السير في ثنايا المستقبل ؟ وان انسَ لا انسَ قول نابليون الاخير « ليت ابني يتصفح التاريخ فانهُ الفلسفة الوحيدة » . واني لموقنة بأنا نعرف من التاريخ ، الحسن السبك ، عن طبيعة الانسان ، اكثر مما نحصل عليه في كل كتب الفيكولوجيا والفيسيولوجيا المدرسية

دورانت : احسنت يا اريل

فيليب : فلماذا لا نطاوع كرونتشي فنجمع بين الفلسفة والتاريخ . في عصرنا نقد حادّ واستعمار لما كان يُدعى «فلسفة التاريخ» بحملاتها على ازدرائها . وكما تخلو اعمال الياسين من الاعمال الكبيرة ، هكذا تخلو الكتابات التاريخية في الاحاطة الفلسفية من جبون وفولتير

دورانت : وهذا الى حدٍّ محدود ، نتيجة الحذر الحكيم فان التاريخ الفلسفي يأتي الادواء التي تعانيها كل المباحث المبنية على فروض اذ يسارع الباحث الى التجريد والتعميم

منالياً في الرأي ، محاولا ان يجمع حوادث الماضي في جملة او عبارة فيستهدف للخطإ

فيليب : ليس التاريخ من دون فلسفة الا جماً عملاً للحقائق . والفلسفة من دون تاريخ تخيوط العناكب في الجو ، لا تفيد الناس . قال فيليب ذلك ، ورفع يده الى السماء ، وقال: التاريخ هو الركن الذي تقوم عليه الفلسفة وهي تنسج المعارف في ثوب واحد لانارتنا في تحسين الحياة البشرية اريل : أحسنت يا فيليب

لما فاهت اريل بهذه الجملة بزغت نجمة المساء وارتفع القمر يشق الظلام بنورهِ الفضي. فصعدنا على هضبة ولبثنا برهة ، وخيّل الينا اننا نسمع اصوات الناس يتناجون تحتنا. فحدقنا واذا حديقة غناء تزيّنها الازهار ، ويخترقها جدول لحيني ، موسيقي الخرير. وقد استدارت المقاعد حول بركة من الرخام ، عليها طائفة من عظام الرجال يرتدون ازياء كل عصر وكل مصر. وكانت وجوه بعضهم مألوفة عندنا فتبيّناها اريل . هذا صديقنا « فولتير »

دورانت : وهذا « اناطول فرنس » ، وهو اقصر مما كنت اظن . ما هذا الوجه ! ففي عاتين العينين البراقتين نصف حكمة الدهور وكل الطافها . وحدقنا بكل منهم فعرفنا فيهم كثيرين . ورأينا الاسقف البدين يرتدي الثوب الكهنوتي الفضفاض ، جالساً يفكر وهو مكتوف اليدين . هو « بوسويه » واعظ بلاط لويس الرابع عشر الجريء ، ومهذّب لويس الخامس عشر « المحبوب » . وبجانب فولتير فرنسي نيل يرتدي بذلة رسمية من عصر الاقطاع ، فظننتهُ « موتان » ، خطأ . رجل في سن الاربعين ، عصبي المزاج ، سريع الانفعال غارقاً في بحار الافكار . ولكنهُ « بكل » مؤرخ التمدن

فقال فيليب هامساً : يا الهي العظيم هذا استاذي الشيخ « لستر وارد » . وهذا رجل الماني قبيح الصورة يذكّرني « برغل » ، والى جانبه « نيتشه » بلحيته الكثة ، وعينيه اللطيفتين ، وهو يتمم بصوت خافت . وفي الزاوية « توماس كارليل » رجل كانه جبل ، وحاجباه كانصخور الناتئة متقدّ العينين كأنهُ كميُّ حرب . وعلى مقربة من الفوّارة رجل طويل القامة ، باهي المحيّا ، تبينت فيه « وليم جيمس » ، يتجلّى في طلعته ذكاء الاميركي وحيوية الفرنسي ويقابله ملاصقاً له ، « كارل ماركس » ، حتى كادت اللحيتان تتلاعبان ، وهو قصير القامة ، اسمر اللون ، تبدو عليه الرزانة والوقار ، ثم شخص آخر من المدرسيين ، فاميركي ففقيه فمشرع فرنسي ، ففرنسي ارستقراطي ، وهؤلاء كنت اجهل من هم . وكان اناطول فرنس يتكلم بلهجة كاهن ومزاج بطله برجريه . وقد حجبه عن النظر الظلام الخيم . فجلسنا على الاعشاب على مدى السمع منهم ، نصغي اليهم ونحن صامتون لئلا يفوتنا شأن من مناظرهم. وكانت احاديثهم في فلسفة التاريخ [بتصرف قليل] هنا نبأنه